إبراز معالم العلاقة التفاعلية بين التراث في أصوله ومناهجه وبين الحاضر في مشاكله وتحدياته في بناء الإنسان المعاصر أخلاقيا وتربويا: ابن خلدون أنموذجا

أ.بن ميسي زبيدة مونية

المدرسة العليا للأساتذة- قسنطينة

تمهيد:

إن الفكر الخلدوني يثير باستمرار الجدال والنقاش عند المفكرين العرب والغرب على حد السواء، وهذا لشموليته ودراسته لقضايا ما زالت تشكل الى حد الساعة موضوع البحث رغم مرور ما يزيد عن ستة قرون،وهو ما يؤكد تجاوز فكر ابن خلدون للإطار الزمكاني بالإضافة الى راهنية فكره في تحليل ودراسة قضايا المجتمع المعاصر.

إذ من بين ما ناقشه واهتم به هذا المفكر الجانب التربوي والأخلاقي وأهميته في بناء وتكوين الإنسان الفاضل، من خلال تطرقه الى شروط المعلم وطرق التدريس وما تضمنته أفكاره من اسهامات بيداغوجية معاصرة، وكذا اهتمامه بالسلوك الأخلاقي وإبرازه لأهمية القيم ليس فقط من أجل تهذيب السلوك الإنساني بل لما لها أثر في بناء المجتمع ومنه قيام الحضارة،وهي الأفكار التي تضمنها كتابه الشهير:مقدمة ابن خلدون.

ولهذا فمن خلال هذه الورقة البحثية سيتم الاجابة على التساؤل التالي:ما هي الآراء التربوية والأخلاقية الخلدونية وما أثرها على الحاضر؟ وهل يمكن الحديث عن وجود علاقة **تفاعلية بين التراث في أصوله ومناهجه وبين الحاضر في مشاكله وتحدياته وهذا من خلال الحديث عن بناء وتكوين الإنسان تربويا وأخلاقيا عند ابن خلدون؟**

أولا- التعليم عند ابن خلدون:

لقد تضمنت مقدمة ابن خلدون الكثير من الآراء الخاصة بالتربية والتعليم وردت في مختلف الفصول، حيث أكد أن التربية هي عملية إعداد، وتنشئة، وتوجيه، وإصلاح، وقيادة للإنسان في مختلف مراحل حياته وأبعاد كيانه وخصوصاً المرحلة الأولى، والعلم والتعليم من ضرورات العمران البشري، ووجودهما فيه أمر طبيعي، وأن تعليم العلم صناعة. فالتعليم عنده يهدف إلى حصول المتعلم على ملكة العلم حيث يصبح على درجة عالية من الفهم وليس فقط حفظه،ولذا جاءت وصيته الكبرى التي وجهها ويوجهها إلى طالب العلم تتمثل في حثه على التفكير والتأمل والتيقن والمباشرة قبل إطلاق الأحكام إلا الشرعية منها، حيث يكون الأخذ بها عن طريق التصديق ولا تستلزم التحقق منها.

ثانيا-أهداف مناهج التعليم:

أ- التربية العقائدية:

1- الإيمان بالله: الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاعتقاد بأنه الكمال الحق الواحد الأحد المتفرد بالعبادة، و أنه ليس هناك " في الوجود أعلى ولا أشرف

ولا أكمل من خالق الأشياء وموجدها و مرتبها ومصورها " [1]،وهذا أهم ما يجب غرسه في المتعلم.

2- الإيمان بالرسول (ص): الإيمان بأن الله سبحانه و تعالى رحمة بنا قد بعث إلينا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليدعونا إلى النجاة و الفوز بالنعيم و أنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربي المبين، يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا إلى ذلك[2].

3 - الإيمان بالآخرة: الإيمان بأن وجود الإنسان في هذه الدنيا هو وجود عبوري زائر إلى وجود حقيقي دائم، وأن هذه الدنيا مطية الدار الآخرة، فعلى الإنسان أن يتزود من عاجله لآجلة.

ب- التربية الخلقية:

1- المسؤولية: غرس المسؤولية الأخلاقية في المتعلم وجعلها جزءا من مكوناته الشخصية،حيث يشعر أنه مسؤول خلقيا مسؤولية مباشرة أمام الله، عما يصدر منه من أفعال اختيارية تجاه نفسه ومجتمعه والوجود كله من حوله[3].

2- الأمانة: غرس مفهوم الأمانة الشمولي في المتعلم،حيث يعي أن مقام الإنسان يقتضي منه أخلاقيا أن يكون أمينا على ما استخلف عليه برعايته والحفاظ عليه وتنميته.

[1]- ابن خلدون، شفاء السائل و تهذيب المسائل، تحقيق أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1991،ص 66.

[2]- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق وتقديم،الدكتور علي عبد الواحد الوافي،3 مجلدات،دار النهضة، مصر،1979، ص 374.

[3] الجيلاني بن توهامي: فلسفة الإنسان عند ابن خلدون، فلسفة الإنسان عند ابن خلدون،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 2011،ص166.

3- العدل: غرس مفهوم العدل في المتعلم، حيث يعي أن العدل أساس الفضائل وينبوعها وأنه دون قانون تفسد النفوس و يختل الوجود و يخرب العمران[1].

ج- الأهداف المعاشية:

1- الصنعة: اكتساب ملكة في أية صنعة من الصناعات وارتقاءها فكريا و عمليا " الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري"[2].

2- التعاون: ترسيخ مبدأ التعاون لدى المتعلم فالتعاون مع الآخرين جزء من شخصية الفرد، وقناعته لديه راسخة بأنه شرط لا يمكن للفرد العيش بدونه، وأنه الطريق الوحيد لإشباع حاجاته، وحفظ حياته، وتحقيق إنسانيته،وبلوغ كماله.

3- النظام: ترسيخ مبدأ النظام بمفهومه الشمولي، بحيث يصبح مفهوم النظام جزءا من شخصية المتعلم، وركنا أساسيا في تركيبته النفسية و الفكرية و العملية[3].

ثالثا- شروط المتعلم والمعلم:

أ- شروط المتعلم:

يرى ابن خلدون أن من أهم الشروط التي يجب على المتعلم مراعاتها ثلاث: الإرادة، الرحلة ولزوم المعلم والتي جمعها في عبارته "ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها

[1] المرجع نفسه،ص167.

[2] ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق،، ص 315.

[3] الجيلاني بن توهامي:المرجع السابق،ص168.

التعليم الذي هو صناعي، لفقدان الصنائع في أهل البدو...،ولا بد من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع في أهل البدو" [1] .

1- **الإرادة** : يرى ابن خلدون أن كل الأفعال الصادرة عن الإنسان "واقعة بمقصودها" [2]، فأي فعل أو كسب لا يكون إلا "بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل" [3]،و العلم عنده من بين الأمور المكتسبة لا يحصل " إلا بإرادته و القصد إليه" [4]، وهي أشبه ما يسمى اليوم في علم النفس التربوي بالدافعية[5] .

2- **الرحلة**: لا بد لطالب العلم من الرحلة لإثراء خبرته و تحفيز همته يقول:" الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال "[6]، والسبب في هذا أن الإنسان بطبيعته أقدر على التعلم والاستيعاب بالتلقي والمحاكاة، أفضل من التعلم و التعليم والإلقاء.

3- **لزوم المعلم**: إذ لا بد للمتعلم أن يدرك كل الأعمال الإنسانية، لا ينفرد بإنجازها الفرد الواحد، بل يتعاون مع أبناء جنسه،و العلم من بين الأعمال التي لا بد فيها من التعاون وأخذ السابق فيها عن اللاحق، ولهذا ينصح المتعلم إذا أراد أن يختصر الطريق ويضمن السلامة من الزلل فيما يتعلمه،أن يلزم المعلم الحاذق في علمه و أن لا يستنكف في الأخذ عمن سبقه، ولا يعتمد في طلبه للعلم على قراءة الكتب بنفسه دون معلم أو مرشد لأنه غالبا أن لا يظفر منها "

[1] ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق،ص 345.

[2] المصدر نفسه، ص 370.

[3] المصدر نفسه، ص 300.

[4] المصدر نفسه، ص 363.

[5] الجيلاني بن توهامي: المرجع السابق،ص193.

[6] ابن خلدون:المقدمة، المصدر السابق، ص 464.

بطائل و يصير إلى مخالفته للجمهور وأفكارهم عليه، و ربما عد جهده بهذه النحلة من أهل البدع بتلقيه العلم من الكتب، من غير مفتاح المعلمين" [1] .

ب- شروط المعلم :

يعد المعلم عند ابن خلدون الركن الأساسي في العملية التعليمية، إذ هو المحدد في النهاية لنوعية نتائج هذه العملية، فحدق المتعلم وتحصيله متوقف أولا و آخرا على حدق معلمه " وعلى قدر جودة التعليم و ملكة المعلم يكون حدق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته " [2]، والمعلم كي يكون أهلا للقيام بأعباء هذه المهمة الخطرة لا بد أن يتحقق فيها شرطان :

أولا : يرى ابن خلدون أن المتعلم بحكم ضعف طبيعته البشرية بالإقتداء بمعلمه و محاكاته لما يعتقده فيه من الكمال،اعتقاد الرعية في حاكمها و الأبناء في آباءهم " إن الملك غالب لمن تحت يده و الرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم " [3] . لهذا فإنه يرى ضرورة أن يكون المعلم مثالا يحتذى به في أخلاقه،عاملا بما يعلم، و أن يكون ممن يحمل أمانة العلم كما جاء في قول ابن خلدون " وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن الفقهاء في الاغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها"[4].

[1] المصدر نفسه، ص 354 .

[2] ابن خلدون، المقدمة، ص 315.

[3] المصدر نفسه، ص 354 .

بمذاهبها"[1]. فالجانب الأخلاقي إذن شرط أساسي لا بد من تحققه في شخص كل من توكل إليه صناعة الأجيال

ثانيا : الحذق في العلم " وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً". [2]،أي أن يكون المعلم متقنا لمادته مستوعبا لها مطلع عليها ملم بها.

رابعا – طرق التدريس:

أ- عيوب طرق التدريس

وجه ابن خلدون نقدا لاذعا لكثير من المعلمين في عصره لجهلهم بطرق التعليم ويمكن تلخيص نقده لهم في أربع نقاط أساسية :

- عدم مراعاة التدرج في التعليم
- عدم الالتزام بالمقررات الدراسية
- الاعتماد على الحفظ
- إهمال بقية الوسائل والشدة على المتعلمين [3]

ب- الطرق الصحيحة حسب ابن خلدون:

في المقابل يضع ابن خلدون ما يراه من الطرق الصحيحة في التدريس والتي تنقسم من حيث موضوعاتها إلى قسمين : ما يتعلق بالجانب العقلي وما يتعلق بالجانب النفسي .

[1] المصدر نفسه، ص 175 .

[2] ابن خلدون : المقدمة، ص ص341-342.

[3] عبد الأمير شمس الدين:الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق،دار اقرأ للنشر والطباعة، لبنان،ص74.

1- الطرق العقلية : وهي تلك الوسائل والأساليب التعليمية التي تراعي إيصال المعلومات وتبليغها مبادئ العقل ومراحل تطوره ومن أهمها :

-التدرج من البسيط إلى المركب الى المعقد ومن العام إلى الخاص، فابن خلدون تماشيا مع مبدئه في التدرج يرى أن إلقاء المادة العلمية للطالب لابد أن يتم عبر جرعات، مبتدئا بأبسطها وأقلها تعقيدا إلى أكثرها تعقيدا إلى أن يتم له تصور كامل المسألة،وهو ما تنادي به البيداغوجيات المعاصرة، حيث يقول ابن خلدون: " ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات،والمركب هو الذي يكون للكماليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط، لبساطته أولا ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله، فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا. ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل، بالاستنباط شيئا فشيئا على التدريج، حتى تَكْمُلَ "، وهذا التدرج يمكن تصنيفه الى عدة مستويات :

-**المستوى الأول "مسائل الكتاب الواحد**" : يرى ابن خلدون ضرورة أن يكون هناك انسجام عام وتوافق في المنطق بين عمليتي بناء المناهج وبين طرق تدريسها، إذ لابد للمعلم من إتباع منطق الكتاب المقرر الذي كلف بتدريسه كما لا ينبغي له خلط المسائل بعضها ببعض " ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيبه من أوله إلى آخره" [1].إضافة إلى ما سبق لا ينبغي له أن يخرج به من كتاب المقرر عليه إلى غيره من الكتب"، ولا أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أنكبت على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدءا كان أم منتهيا" . والسبب في ذلك كما يرى ابن خلدون زيادة على ما تقدم وجوب إتباع

[1] ابن خلدون:المقدمة، المصدر السابق، ص 458.

الكتاب المقرر لمراعاته التدرج المبني وفق نظرته على أساس مراحل النمو العقلي ودرجاته[1].

- **المستوى الثاني : "الحقل المعرفي الواحد"** : المعلم مطالب بعدم خلط مسائل الكتاب المقرر الواحد للمستوى الواحد بعضها ببعض، أو الخروج منه إلى كتاب آخر في المستوى نفسه، وكذلك مطالب بعدم خلط مسائل المستوى الأدنى بغيرها من مسائل المستويات العليا كأن " يحضر للمتعلم في أول تعليمه مسائل المقفلة من العلم "[2]،أو أن يلقي "عليه الغايات في البدايات وهو حينئد عاجز عن الفهم والوعي وبعيدا عن الاستعداد له " [3]،والسبب في هذا " قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا " [4]،وهذا تأكيدا لمبدئه في التدرج. وهو بهذا يحذر من الآثار التربوية السيئة التي قد يسببها هذا الخلط على نفسية المتعلم كالكسل وانحطاط الفكر والذهن وهجران العلم " وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيدا عن الاستعداد له كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه "[5]،وكل هذا بسبب " سوء التعليم" الذي لم يراع ضعف النفس البشرية التي تحتاج إلى الرفق والمساعدة[6].

-**المستوى الثالث "الحقول المعرفية المتعددة"** : من أنواع التدرج المهمة التي لابد من مراعاتها في التعليم عدم الخلط بين علمين مختلفين في آن واحد معا،لأن أي محاولة لإشغال المتعلم باستقبال أكثر من علم قبل أن يتكون لديه

[1] الجيلاني بن توهامي:المرجع السابق،ص75

[2] ابن خلدون:المقدمة، المصدر السابق، ص 458.

[3] المصدر نفسه، ص458.

[4] المصدر نفسه،ص458.

[5] المصدر نفسه، ص 458.

[6] عبد الامير شمس الدين:المرجع السابق،ص83.

تصور كامل عن إحداهما،سيكون مدعاة إلى تشتيت باله وحرمانه حينئذ من الاكتساب والاستيعاب، فالأفكار لا تستوعب دفعة واحدة " أن لا يخلط على المتعلم علمان معًا، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معاً "[1].

2 – **الطرق النفسية :** وهي تلك الوسائل والأساليب التعليمية التي تراعى في إيصال المعلومة وتبليغها مبادئ النفس ومراحل تطورها ومن أهمها:

– **القياس والمحاكاة** : فهما "أساسان مهمان في عملية التربية والتعليم"[2]، فالتعليم بالمعاينة –التطبيق– في الصنائع عند ابن خلدون هي أسهل على الفهم وأسرع للاستيعاب من التعليم بالخبر–النظري– " اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري و بكونه عمليا هو جسماني محسوس، والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، و الملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل و تكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته، و على نسبة الاصل تكون الملكة، و نقل المعاينة أوعب و أتم من نقل الخبر والعلم "[3].

ذلك أن" الأمثال الحسية " حسب رأيه هي من أنجع الوسائل في فهم المعلومات وتفكيكها،وترسيخها في ذهن المتعلم،وهو ما تدعو إليه البيداغوجيات المعاصرة بما يعرف بالوقائع والأمثلة الحسية.

– **التكرار بانتظام** : يرى ابن خلدون أن النفس من طبيعتها الجهل، إذ هي تولد خلوة من أي علم " لذا فالعلم لا يحصل دفعة واحدة لها، بل لابد أن يتم وفق مبدئه في التدرج في التكرار مرة بعد مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته

[1] المصدر نفسه، ص459.

[2] المصدر نفسه، ص371.

[3] المصدر نفسه، ص315.

"[1]،وهذا التكرار حتى يكون مثمرا لابد أن يكون متتابعا منتظما ضمن فواصل زمانية متقاربة " ينبغي لك ألا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينما، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها . وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة، لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره "[2] .

- **التحفيز:** يرى ابن خلدون أنه لابد من حمل المتعلمين وتحفيزهم على طلب العلم قدر الاستطاعة " بالقرب والملاينة " والترغيب " في الثواب والأجر " [3]. فلابد للمربي من الموازنة بين صون النفس المتعلم عن المذلة احتراما لخاصية الرئاسة فيه وبين تحفيزه واستنهاض همته حماية له من دواعي الدعة والهول[4] .

- **عدم الشدة على المتعلمين:**"إن الشدة على المتعلمين مضرة لهم"[5]، و"ذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة"[6]،لأن الشدة تذهب النشاط وندعو الى الكسل،كما انها تحمل على الكذب والخبث وتعلم المكر والخديعة. ولكن إذا كان ابن خلدون قد رفض وعارض الشدة والعنف وانواع العقاب المسلطة على المتعلم لما لها من آثار سلبية، إلا أنه لم يدع إلى التسامح الكلي معه أي المتعلم فقد أباح العقاب البدني في الضرورة القصوى وبما لا يزيد على ثلاثة أسواط، بشرط أن يكون

[1] المصدر نفسه،ص315.

[2] المصدر نفسه،ص459.

[3] المصدر نفسه،ص271.

[4] عبد الأمير شمس الدين:المرجع نفسه،ص85.

[5] المصدر السايق:ص579

[6] المصدر نفسه : ص 579.

العقاب آخر العلاج، وبعد استخدام الترغيب والترهيب والتوبيخ والعزل والإهمال [1].

وخلاصة لما سبق يمكن تحديد نشاطات المعلم التعليمية في النقاط التالية[2]:

- القاء وشرح الدروس
- مراقبة النشاط التعليمي للمتعلمين وضبط سلوكهم
- تهيئة الدروس
- تحديد الطرق التعليمية
- تحديد الأهداف البيداغوجية
- رسم الخطة المنهجية (يناء مذكرة)
- التلقين بالاعتماد على الشرح والبيان والامثلة الحسية
- الشرح والبرهنة والنقد

نتائج البحث:

مما سبق نستنتج ما يلي:

- أكد ابن خلدون على أن التربية هي الكفيلة بتكوين إنسان فاضل، مشيرا إلى شروط المعلم والمتعلم وطرق التدريس التي تحتوي على أفكار عديدة نجدها مجسدة في البيداغوجيات المعاصرة،كمبدأ التدرج والتكرار وعدم الخلط بين موضوعين، وبناء المذكرة الخاصة بالدرس وتحديد الاهداف المرجوة من الدرس... ولهذا فهو يعتبر بحق بيداغوجي وديداكتيكي.

[1] محمد بن إبراهيم الفوزان: ابن خلدون وفكره التربوي، http://faculty.ksu.edu.sa/m.AlFouzan/Pages/

[2] فتيحة حداد:ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر،2011،ص187.

- أشار ابن خلدون إلى العلاقات الإنسانية بين المعلم و المتعلم وكيف يجب ان تبنى الحياة التربوية على الاحترام المتبادل، الثقة، والتعاطف والحب،وعلى التبادل العلمي بينهما فالمتعلم ينهل من المعلم خبراته وتجاربه ومعارفه، والمعلم لا يبخل على المتعلم بمنحه علمه وخبرته وفذا ما يوثق الصلة بينهما.

- إن ما اشار اليه ابن خلدون من خلال حديثه عن مختلف الأطراف الفاعلة في العملية التعلمية التعليمية، أي عن المنهاج والبرامج والكتب وطرق التدريس وكيفية التعامل مع التلاميذ وهو ما يعبر عنها بيداغوجيا بالعلاقات الثلاثة: العلاقة الديداكتيكية (المعلم التعليم المعرفة)، والعلاقة البيداغوجية (المعلم التكوين المتعلم)، وعلاقة التعلم(المتعلم التعلم المعرفة)، لدلائل مفحمة على راهنية ابن خلدون في علوم التربية،إذ أنه فعلا وُفق في النقد والبناء والتحليل والتركيب من أجل بناء وتنشئة المتعلم تنشئة اجتماعية صحيحة وسليمة. ولهذا فالتربية فعلا تساهم في الحفاظ على قيم الاسرة والمجتمع وعاداته وتقاليده، وتسعى جادة لتكوين المواطن الصالح.